الفصل الثالث

العثمانيون في أوج التوسع والقوة

السلطان سليم الأول (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ/١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م)

استولى سليم على السلطة بعد الفتنة التي عصفت بحكم والده وإجباره على التنازل عن العرش لابنه سليم. وقد أبدى سليم منذ بداية حكمه ميلًا إلى سفك الدماء، فاستهل عهده بقتل عدد كبير من إخوته، وما لبث فيما بعد أن قتل عدداً كبيراً من رعاياه وأقدر معاونيه وأبدى حبه لخوض المعارك. وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ. ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم الذين كرمهم ورقى كثيراً منهم لتولي وظائف عليا وهامة. وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أخبار الماضي[١].

وعلى أي حال فقد اهتم سليم بشؤون حدوده الشرقية التي كانت تواجه احتمال الغزو بعد تولي الصفويين حكم فارس، خاصة وأنه كان أول حاكم عثماني على علم وثيق بأحوال الثغور الشرقية للإمبراطورية،

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٧٦.

فقد أقام عدة سنوات في طرابيزون وتحالف مع حكام القرم، كما أعانه ابنه سليمان في تجنيد القوات التترية التي أدت إلى توليه الحكم[١].

وقد حاول الصفويون بزعامة الشاه إسماعيل الصفوي نشر المذهب الشيعي بين القبائل في الأناضول مستغلًا سياسة السلطان العثماني بايزيد الثاني السلمية نحو الشرق وجهاده ضد القوى الأوروبية بصفة خاصة، فحاول أن ينشر المذهب الشيعي بين القبائل التركمانية في شرق الأناضول لبسط السيطرة الصفوية هناك، وتجاوبت بعض القبائل مع دعوته الشيعية. مما أثار حفيظة السلاطين العثمانيين ضد الصفويين وشعروا بفداحة الخطر الجديد الذي يمثله الشاه إسماعيل الصفوي بالنسبة للعثمانيين[٢].

وفي أوائل عهد السلطان سليم الأول، ازدادت العلاقات العثمانية الصفوية سوءاً، فقبل اعتلائه العرش، وعندما كان أميراً على طرابيزون، أدرك سليم خطورة الزحف الشيعي ولذا حاول إثارة والده بايزيد لمواجهته، إلا أن محاولته ذهبت سدى. ولما اعتلى سليم العرش لم يقدم الشاه إسماعيل التهنئة إليه بهذه المناسبة، وإزاء ذلك كله، هب سليم لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه، فاستصدر سليم فتوى من شيخ الإسلام تحتم ضرورة قتال الشيعة. واستناداً على هذه الفتوى، أجرى سليم مذابح كثيرة بين الشيعة في الأناضول. ورد إسماعيل على ذلك بإقامة مذابح عامة بين السنة في بلاده. وتبادل السلطان والشاه الرسائل العنيفة وتلا ذلك أن أعلن سليم الجهاد الديني وخرج لقتال الصفويين[٣].

وحدث الصدام الأول بين العثمانيين والصفويين في سهل جالديران

---

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى،المرجع السابق، ص ٧٧.
(٢) عبد الكريم رافق، العثمانيون والعرب، ص ٥٥.
(٣) عبد الكريم رافق، العثمانيون والعرب، ص ٥٧.

بالقرب من تبريز، حيث دارت معركة في ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م (٩٢٠ هـ) بين القوات العثمانية المسلحة بالبنادق والمدفعية وبين القوات الصفوية، وانتصر العثمانيون في المعركة. ودخل السلطان سليم تبريز عاصمة الصفويين واستولى على أموال الشاه وأمر بترحيل مهرة الصناع إلى استانبول[١].

وفي أعقاب معركة جالديران، احتل العثمانيون كردستان وديار بكر ومنطقة مرعش من أيدي زعماء التركمان كما دخلوا الموصل. ولكن بغداد والبصرة بقيتا تحت الحكم الصفوي وكان لضم الأناضول الشرقية نهائياً إلى الإمبراطورية العثمانية، نتائج استراتيجية واقتصادية هامة. فقد حمت الهضبة الأناضولية في الشرق الدولة العثمانية من الغزاة القادمين من أواسط آسيا، كما سيطر العثمانيون على طريق نقل الحرير الفارسي بين تبريز وحلب، وبين تبريز وبورصة. وإذا كان العثمانيون قد أمنوا حدودهم الشرقية بفضل انتصارهم في جالديران، فقد كشفت هذه المعركة عن حاجة الدولة الصفوية لإعادة تنظيم جيشها وإدارتها. خصوصاً بعد أن ضعفت العلاقات السياسية بين الشاه وبين القبائل التركمانية المعروفة بالقزلباش[٢].

وكانت القوة الثالثة ذات الوزن في العالم الإسلامي وقتئذ هي دولة المماليك في مصر والشام وصاحبة السيادة على الحجاز واليمن. وكانت هذه الدولة قد تولت الحكم منذ أواسط القرن الثالث عشر تقريباً، وعاش سلاطينها في رخاء من وراء الثروة التي جمعوها من بيع السلع الشرقية. كما كان للدولة المملوكية فضل إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام (٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، وبذلك أضفت على نفسها الطابع

(١) عبد الكريم رافق، العثمانيون والعرب، ص ٥٧

(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠.

الشرعي، وتبوأ سلاطينها مركزاً مرموقاً. فقد أصبح لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامي، باعتبارهم حماة الخلافة، كما أصبحت للقاهرة مكانة سياسية بارزة لأنها مقر الخلافة الإسلامية[1].

ومنذ نشأة الدولة العثمانية أواخر القرن الثالث عشر، اتسمت علاقتها بالود مع الدولة المملوكية، وتبادل سلاطينهما الهدايا والتهاني في المناسبات المختلفة. ولكن في القرن الخامس عشر تاخمت حدود الدولة العثمانية حدود الدولة المملوكية في الشام، مما أوجد احتمال التصادم بينهما، علاوة على أن خروج العثمانيين إلى البحر المتوسط جعل احتمال التصادم أمراً مؤكداً، بسبب سيطرة المماليك النسبية في هذا البحر.

والواقع أن العلاقات العثمانية المملوكية تأرجحت بين التعاون والنزاع، فقد تعاونت الدولتان لصد الخطر المغولي المشترك. غير أن هذا الموقف تغير وعدل المماليك عن التحالف الدائم مع العثمانيين. ومع ذلك فإن انتصارات العثمانيين في أوروبا، قوبلت بفرح وسرور في مصر باعتبارها انتصارات للإسلام. وعندما سقطت القسطنطينية عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) في أيدي العثمانيين، واحتفل بهذه المناسبة في مصر، وأرسلت التهاني إلى السلطان العثماني محمد الثاني أو الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م)[2].

ومع تذبذب العلاقات العثمانية المملوكية، جرى صراع على النفوذ حول إمارة ذي القدر أو إمارة البستان، التي تقع شمال بلاد الشام وجنوب شرق آسيا الصغرى وهي أشهر الإمارات التركمانية. وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الإمارة العازلة فأيد كل منهم أميراً تركمانياً، ومارسوا النفوذ من خلاله. ونتج عن هذا اقتتال أفراد الأسرة الحاكمة في إمارة ذي القدر، وتأزم في العلاقات المملوكية العثمانية[3].

---

(١) محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ٤٢ ــ ٤٤.

(٢) د/السيد رجب حراز، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص ١٤ ــ ١٥.

(٣) محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٨٤، ص ٣٩٨ ــ ٤٠٤.

ومما زاد هذه العلاقات تأزماً، إيواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين وهكذا تبلورت العلاقات بين المماليك والعثمانيين، إلا أن القتال لم ينشب إلا عام (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م)، حين هاجمت الجيوش العثمانية بلاد الشام واستولت على بعض المواقع غير أن السلطان المملوكي قايتباي عقد صلحاً بينه وبين العثمانيين لسوء الأحوال الداخلية في مصر وانتشار القحط في البلاد. وتحسنت العلاقات بين الطرفين في مطلع القرن السادس عشر، بسبب تهديد البرتغاليين والصفويين لكل من الدولتين فقد عمل التهديد الصفوي على التقارب بين العثمانيين والمماليك، غير أن هذا التقارب لم يستمر طويلًا بسبب موقف السلطان الغوري أثناء الحرب التي قامت بين السلطان سليم الأول وبين الشاه إسماعيل الصفوي بسبب عدم مساعدة المماليك للعثمانيين، وأدى ذلك إلى الصدام بين الجانبين[١].

ويبدو أن المماليك قد أوجسوا خيفة من منافسة السلطان العثماني في السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز (الحرمين الشريفين) والدفاع عن الإسلام، لذا فإن السلطان قنصوه الغوري عمل على إقامة تحالف مع الشاه إسماعيل الصفوي ضد العثمانيين، وذلك حفظاً على مناطق نفوذه في الشام وآسيا الصغرى. فسار الغوري إلى الشام، ولم تلبث الحرب أن قامت بين الغوري وسليم الأول معركة عند مرج دابق شمال حلب عام ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م[٢]، ومني الغوري بهزيمة ساحقة، قتل فيها. وضاعت جثته بين آلاف الجثث. ثم انهارت سوريا كلها أمام جيوش سليم الأول المزود بالمدافع التي لم يألفها المماليك من قبل، ودخل سليم الأول دمشق في نفس العام،

(١) أحمد بن زنبل الرمال، آخرة المماليك (فتح مصر)، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٩ ــ ٢٠.
(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، حـ ٣، ص ٤٤٥.

وهكذا قدر للعثمانيين أن ينجحوا في أول جولة لهم مع المماليك، مما أتاح لهم أن يتوغلوا في بلاد الشام حتى وصلوا إلى أبواب مصر[١].

وبعد بضعة أيام من معركة مرج دابق، دخل سليم حلب، واستقبله الخليفة العباسي المتوكل على الله، الذي كان بصحبة الغوري، وبقي في حلب قبل المعركة، وخطب باسم السلطان سليم في صلاة الجمعة، ولقب: خادم الحرمين الشريفين، وكان يلقب به السلاطين المماليك بحكم تبعية الحجاز لمصر. وأقام سليم في دمشق قرابة شهرين قدم إليه خلالهما زعماء البلاد فروض الولاء والطاعة[٢].

وقد اختار مماليك القاهرة، على أثر مقتل الغوري، سلطاناً جديداً هو طومانباي الذي فشل في تكوين جيش جديد يواجه به العثمانيين، رغم أن السلطان سليم أراد أن يعقد صلحاً مع طومانباي، وطلب منه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، على أن يكون طومانباي نائباً عن سليم في حكم البلاد حتى مدينة غزة، وأن يذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة. ولكن طومانباي رفض عرض السلطان سليم. وأدى ذلك إلى أن تابع سليم زحفه إلى مصر فاستولى على يافا وغزة والعريش ثم عبر سيناء ودخل الدلتا زاحفاً إلى بلبيس فالقاهرة. وفي ٢٣ يناير ١٥١٧م (٩٢٣ هـ) التقت القوات العثمانية مع القوات المملوكية في معركة الريدانية وانتصر فيها العثمانيون وهزم المماليك. وقتل منهم (٢٥,٠٠٠)[٣].

---

(١) ابن زنبل، المرجع السابق، ١١ ــ ١٧.

(٢) ابن إياس، المرجع السابق، ص ٤٦٢ ــ ٤٦٣.

(٣) عن فتح العثمانيين لمصر، انظر ابن زنبل الرمال، فتح مصر، القاهرة ١٢٧٨ هـ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ٦ أجزاء القاهرة ١٩٨٤. وكلا المؤرخين من المماليك. ولهذا نجدهما يثنيان على شجاعة طومانباي وغيره من الأمراء ويحقران من شأن الأسلحة النارية العثمانية.

وعلى أثر هزيمة المماليك في الريدانية، دخل سليم القاهرة، ثم ألقى القبض على طومان باي الذي شنق على باب زويلة. وبذلك استقر الأمر للعثمانيين وتقبل سليم ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة، وبذلك تمت له السيطرة على البقاع الإسلامية. وكان تعيينه للشريف حاكماً على جدة والمدينة ومكة وسائر الحجاز سابقة سار عليها خلفاؤه على منوالها. وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن الإسلامية المقدسة عليها زعامة دينية في العالم الإسلامي. وقد اهتم السلطان سليم بالأماكن المقدسة كالمسجد الأقصى وغيرها[1].

مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان:

هناك مسألة ترتبط بالفتح العثماني لمصر هي ما يقال من أن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة. فالمؤرخ المصري المعاصر للفتح العثماني، وهو ابن إياس، لم يذكر شيئاً عن هذه المسألة الهامة، كما لم ترد في الرسائل التي بعث بها السلطان سليم إلى ابنه سليمان أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان. كما أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول. على أن أمراء مسلمين كانوا قد ادعوا قبل ذلك الخلافة، وكان بعضهم معاصرين لبعضهم الآخر. وحينئذ كان لقب الخلافة قد اتخذ معنى جديداً: فلم يعد يتطلب الانتماء إلى آل العباس، إذ أصبح العاهل المسلم يستمد سلطته من الله مباشرة. وهكذا ادعى مراد الأول الخلافة. ووصف محمد الأول عاصمته بدار الخلافة، وكذلك الحال بالنسبة إلى مراد الثاني ورغم أن محمداً الفاتح لم يستعمل اللقب في رسائله للملوك أو لرعاياه، فإن سليم الأول أطلق على نفسه لقب «خليفة الله في طول الأرض وعرضها» منذ عام ١٥١٤م

(١) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٩٢٠هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان[١].

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد أحرزوا مكانة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به. كما أن فتوح سليم جعلته أقوى حاكم مسلم معاصر، كما أعلى مكانة دخول مكة والمدينة ضمن ممتلكاته، خاصة وأن قوة الدولة العثمانية في عهده جعلت مسلمي العالم يتطلعون إلى مساعدته بعد أن تعدى البرتغاليون على الموانئ الإسلامية في آسيا وإفريقيا. وملخص القول أن السلطان سليم لم يهتم بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية[٢].

وكان السلطان سليم يهدف إلى إزالة الدولة الصفوية، غير أن الوزراء حولوا نظره عن محاربة بلاد الفرس، ووجهوا اهتمامه إلى فتح جزيرة رودس مقر فرسان القديس يوحنا. فشرع يعد العدة لحرب جديدة ضد الأوروبيين الذين كانوا يعدون لحرب صليبية جديدة، فاستولى على جزيرة رودس، وتوجه لفتح أدرنة غير أنه توفي قبل إنجاز مهمته هذه[٣].

السلطان سليمان الأول (القانوني) (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م)

تولى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٩٢٦ هـ/١٥٢٠ م. وفي عهده

---

(١) توماس أرنولد، الخلافة، ترجمة جميل معلى، دمشق ١٩٤٦، ص ٧٦ ـ ٨٠.
ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٤٢ ـ ٤٦.

(٢) Shaw, Stamford, History of the ottoman Empire and Modern Turkey, (combridge 1977) P.85.

(٣) بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٤٩.

بلغت الدولة أوج قوتها واتساعها. وفي بداية حكمه تمرد حاكم دمشق جانبرد الغزالي ولكنه قتل على أيدي القوات العثمانية[1].

وقد اشتهر سليمان بالتسامح والعدالة فعاقب الخارجين والباشوات والضباط الفاسدين والمنحرفين، ونتيجة لذلك أحبه شعبه، فلم يتحدّاه أحد من الأمراء وساعدته الانكشارية على تحقيق ما يريد وتوطيد سلطته. وقد عمل على بناء أسطول كبير قوي يساعده على مواجهة أعداء الإسلام في الشرق والغرب (الإسبان والبرتغاليون).

وقد وفرت الفتوحات في العالم الإسلامي مصادر دخل وفيرة بحيث كان باستطاعته أن يصل إلى قمة الازدهار والعظمة فأطلقوا عليه لقب الفخم.

وأقام العدالة ومنع الظلم وأكد حماية أرواح وأملاك الأشخاص، ونظم الضرائب وأنصف التجار الذين تضرروا من مقاطعة بلاد فارس. وكذلك نظم المحاكم، وفرض على رجال البوليس (الشرطة) والمفتشين إطاعة أحكام المحاكم وقوانينها. وأعاد تنظيم الإدارة، وحذر الموظفين من ظلم الشعب[2].

أعماله الحربية في أوروبا:

استولى السلطان سليمان على بلغراد عام ١٥٢١م (٩٢٨هـ) وهو في طريقه إلى المجر، وفتح جزيرة رودس ١٥٢٢م (٩٢٩هـ) لمنع رهبان هذه الجزيرة من محاربة المسلمين وأسر عدد منهم والاستيلاء على بضائعهم، ونزح سكانها منها إلى جزيرة مالطة التي أصبحت قاعدة لمحاربة المسلمين.

---

(١) محمود شاكر، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٨٨ ــ ٨٩.

وإثر استيلاء السلطان سليمان على بلغراد أعلنت البندقية ولاءها للسلطان العثماني، وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين ملك فرنسا فرانسوا الأول وبين السلطان سليمان يطلب منه الزحف على المجر بهدف إضعاف خصمه شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، (والتي تضم النمسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا). وفي عام (٩٣٣هـ / ١٥٢٦م) بدأ غزو المجر بجيش يقوده السلطان قوامه مئة ألف مقاتل ومعهم ٣٠٠ مدفع. وفي معركة موهاكز قتل ملك المجر لويس الثاني وكثير من نبلائه وكهنته وأكثر من عشرين ألف مجري ثم سقطت كل من بودابست ووقع في أيدي العثمانيين مئة ألف أسير بيعوا في أسواق النخاسة وفي النهاية استولى العثمانيون على المجر التي ظلت ولاية عثمانية لمدة ١٤٠ سنة[١].

وفي عام (٩٣٦هـ / ١٥٢٩م) زحف سليمان بجيش قوامه ربع مليون جندي على فينا التي دافع عنها سكانها ببسالة مما أدى إلى فشل الحصار. وبعد ثلاث سنوات زحف سليمان على المدينة من جديد بجيش جرار، ولكن شارل الخامس واجهه بجيش ضخم. وفي النهاية عقد الصلح بين الطرفين في الآستانة عام (٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)، ولو أن الحرب قد اندلعت من جديد في عام (١٥٤١م / ٩٤٨هـ) واستطاع سليمان خلالها أن يهزم النمسويين وأن يضم المجر نهائياً إلى الأملاك العثمانية. وكان والي المجر هو الوالي الوحيد الذي يشغل رتبة وزير، وقد منح حق الإشراف على الإجراءات الإدارية العادية والرد على أي هجوم يقوم به الهابسبورج وإجراء المفاوضات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى الآستانة. واستمرت الحرب بين سليمان والهابسبورج بصورة متقطعة حتى وفاته في عام (٩٧٤هـ /١٥٦٦م)[٢]. وأخيراً وقعت معاهدة بين النمسا

---

(١) Creasy, F.S, History of the Ottoman Turks, London 1878, P.165

(٢) Ibid

والسلطان العثماني عام (٩٥٤ هـ/١٥٤٧م) لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية للدولة العثمانية[١].

العثمانيون والصفويون:

كان طهماسب قد تولى حكم فارس بعد أبيه الشاه إسماعيل الصفوي، وأظهر العداء للعثمانيين، ورفض الاعتراف بالسلطان العثماني خليفة على المسلمين، فقام الصراع بينه وبين الصفويين الذين عملوا على إثارة القلاقل في الأناضول وفي الطرف الأوسط والجنوبي وذلك بفرض المذهب الشيعي عنوة والتضييق على المذهب السني. وإزاء ذلك، قام سليمان بالتصدي لذلك. ففي عام (٩٤٠هـ / ١٥٣٣م) استولى سليمان على المنطقة الممتدة من أرضروم وبحيرة وان مستهدفاً الاستيلاء على أذربيجان، ثم زحف بقوة كبيرة على أواسط فارس واحتل تبريز وركز جهده في الاستيلاء على العراق. وفي عام (٩٤١هـ / ١٥٣٤م) سقطت بغداد وباقي العراق دون مقاومة، وقاد كبار رجال الدين من السنة الشعب في ثورة قضت على الجند الفرس وزعماء الشيعة الذين كانوا يضطهدونهم. وفي عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) استولت القوات العثمانية على البصرة، وما لبث الحكم العثماني أن امتد إلى الإحساء في عام (٩٦٣هـ / ١٥٥٥م). وباقي الخليج[٢]. وهكذا اكتملت سيطرة سليمان على الأراضي التي كانت تدخل في نطاق الخلافة القديمة. وتم إنقاذ المذهب السني، وتأكدت زعامة الدولة العثمانية على العالم الإسلامي[٣]. ورغم استيلاء سليمان على كردستان ومعظم العراق،

---

(١) محمود شاكر، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٥١.

(٣) علي حسون، المرجع السابق، ص ٦٧.

فإنه لم يوقع الهزيمة بالصفويين الذين احتفظوا بأذربيجان وبعض أجزاء من شرقي العراق وجنوبي القوقاز. واستغل سليمان هرب ميرزا شقيق طهماسب إلى الأراضي العثمانية عام (٩٥٤هـ / ١٥٤٧م) للاستيلاء على القوقاز وأذربيجان إلا أن طهماسب استعاد أذربيجان بعد أن استولى سليمان عليها[١] وعقد الصلح بين الطرفين وخرج السلطان سليمان من تبريز نظير تقديم الشاه الطاعة للسلطان.

وفي خلال الشهور القليلة التي قضاها السلطان سليمان في العراق، لإراحة قواته من ناحية، ولتنظيم أحوال الولاية الجديدة من ناحية أخرى، حاول العاهل العثماني إرضاء الشيعة والسنة على السواء بكل ما وسعه من جهد. وقد استمر النزاع العثماني الفارسي حول هذه البلاد، فقد خضع العراق أكثر من مرة بيد الفرس[٢].

العثمانيون والصراع في غربي البحر المتوسط:

في غربي البحر المتوسط واصل المسلمون جهادهم ضد الصليبيين الإسبان الذين أجبروهم على الرحيل من الأندلس. فقد أسس المسلمون المنفيون من إسبانيا مستوطنات على طول سواحل شمالي إفريقيا وعقدوا العزم على الانتقام من مضطهديهم وذلك بالإغارة على سواحل إسبانيا المألوفة لديهم ومهاجمة السفن النصرانية، وبخاصة في مضيق جبل طارق وجزيرة مالطة[٣].

وفي خلال سنوات قليلة كانت أغلبية الموانئ الممتدة من تونس شرقاً إلى المغرب تضم أساطيل إسلامية أثارت الرعب في قلوب أوروبا.

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩١ ــ ٩٢.
(٢) د/السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٣٢ ــ ٣٣.
(٣) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٨٢ ــ ٨٣.

ورداً على ذلك استولى الإسبان. على عدد من النقاط الحصينة على طول سواحل مراكش والجزيرة وأرغموا الحفصيين حكام الجزائر على الخضوع لهم والسماح لهم بإقامة قاعدة بحرية حصينة في جزيرة بينون القريبة من ميناء الجزائر. وأدى هذا إلى تحويل النشاط الجهادي الإسلامي من شرقي البحر المتوسط إلى الغرب مما مهد للفتح العثماني للشمال الإفريقي[1].

ومن أشهر رجال البحر المسلمين وأنجحهم الأخوان عروج وخير الدين بربروسا وكانا نصرانيين ثم أسلما، فدخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس. وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً. وقد أرسلا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزل لهما العطاء، فقويت نفسيهما. واستقر الاخوان في حلق الوادي، ميناء يونس، حيث التف حولهما معظم المجاهدين المسلمين وسيطرا على الجزائر كما أشرنا وقتل عروج ولكن سرعان ما برز أخوه خير الدين باعتباره بطل الإسلام بحيث أصبحت أوروبا تحسب ألف حساب لقوة أسطوله[2].

ورداً على ذلك شكل الصليبيون تحالفاً ضد المسلمين في شمال إفريقيا بقيادة أندريه دوريا. وهاجموا بلاد اليونان، غير أن السلطان العثماني عين خير الدين قائداً للأسطول العثماني بعد أن عينه قائداً للبحرية العثمانية. وما لبث خير الدين أن أعد الأسطول القوي، واحتل كورون ولبانتو وتونس وأغار على سواحل إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية. وفي النهاية بسط النفوذ على غربي البحر المتوسط. وتمكن أندريا دوريا قائد الصليبيين من استرجاع تونس عام (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م)

---

(١) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٨٣ ــ ٨٧.

التي ظلت مجال نزاع بين الطرفين إلى أن تستقر نهائياً في أيدي العثمانيين[١].

وتأسيساً على ذلك، تحالف العثمانيون مع فرنسا وتم التوصل إلى المعاهدة المعروفة باسم «الامتيازات الأجنبية» عام (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م)، وهي تشبه المعاهدات التي سبق للدولة العثمانية أن عقدتها مع جنوة والبندقية. فسياسة الدولة العثمانية كانت تستهدف استمرار العلاقات الخارجية مع الغرب، ومن ثم الاستمرار في التجارة البحرية مع البنادقة والجنويين ثم الهولنديين فالإنجليز والفرنسيين، في الوقت الذي كانت فيه للدولة علاقات تجارية مع البلدان الواقعة على المحيط الهندي بالإضافة إلى بلدان غربي آسيا وإفريقيا[٢].

فالامتيازات الممنوحة لفرنسا في عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م أو ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) ثم للهولنديين والإنجليز كانت تستهدف دعم هذه الدول ضد بابا روما وهابسبورج النمسا. ومما ساعد إلى حد كبير على بروز فرنسا خلال القرن السادس عشر تحالفها مع العثمانيين. فالأسطول العثماني في غربي البحر المتوسط كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال وتأمين حدود فرنسا[٣].

وطبقاً لمعاهدة (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م) جرى تعيين قناصل فرنسيين في موانئ الشام، وأعفي التجار الفرنسيون من الخضوع للقانون العثماني وطبق عليهم القانون الفرنسي تحت إشراف ممثل فرنسا في الآستانة (إستانبول)، كما تمتعوا برسوم جمركية تقل عما كان يدفعه رعايا الدول الأخرى بشرط أن يتمتع رعايا السلطان بالمثل. ومنح الفرنسيون الحرية

---

(١) محمود شاكر، المرجع السابق، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢) Marriott, J.A.R. The Fastern Question, (oxford 1958) P.93

(٣) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٤.

التجارية المطلقة وحرية الملاحة في كل الموانئ العثمانية، وتمتع المقيمون الفرنسيون في الدولة العثمانية بامتيازات خاصة فيما يتعلق بنقل الملكية، وأتيحت لهم حرية ممارسة طقوسهم الدينية، كما منحوا حق حراسة الأماكن المقدسة، وكذلك حماية رعايا السلطان النصارى. وتلا توقيع معاهدات الامتيازات الأجنبية عقد حلف بين فرانسوا الأول وسليمان في مواجهة أسرة الهابسبورج، على أن يبقى أمره في طي الكتمان حتى لا يتعرض العاهلان لسخط شعبيهما في وقت كان يسوده التعصب الديني[١].

وما لبث الطرفان أن عملا على استعراض حلفهما بالهجوم المشترك على إيطاليا: العثمانيون بحراً من الجنوب والفرنسيون برّاً من الشمال. وكان العثمانيون قد فكروا باستمرار في غزو إيطاليا ولكنهم ترددوا في ذلك خشية تصدي أوروبا لهم على أن فرنسا قد شجعت العثمانيين على الإقدام على هذه الخطوة وذلك لانتزاع جزيرة كورفو من البنادقة.

وعلى العموم، فقد تقدم الفرنسيون في شمالي إيطاليا للاستيلاء على ميلانو وجنوة، في نفس الوقت الذي بدأ فيه بربروسا سلسلة من الغارات على أملاك الهابسبورج في غربي البحر المتوسط وأواسطه، في الوقت الذي أعد فيه السلطان سليمان جيشاً قوامه ٣٠٠,٠٠٠ جندي وبدأ في تحريكه صوب ألبانيا لكي يقوم خير الدين بنقله إلى إيطاليا إلا أن البابا توسط بين فرنسا والنمسا لعقد صلح تمهيداً لتوحيد أوروبا ضد العثمانيين[٢]. ولم يكتف فرانسوا بعقد الصلح مع شارل امبراطور الهابسبورج في النمسا، بل إنه وعد بالاشتراك في حملة صليبية ضد

---

(١) د/عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، حـ ٢، ص ٧١٩ ــ ٧٢٢.

(٢) Inalcik, khalil, The ottoman Empire, London 1978, P.51 - 52. مقتبسه من كتاب أصول التاريخ العثماني ص ٩٦.

العثمانيين وسحب جيوشه من شمالي إيطاليا. وقد غضب خير الدين لذلك واستولى على معظم جزر بحر إيجة الذي أصبح تحت السيطرة العثمانية، مما أدى إلى تشكيل حلف صليبي بحري يقوده دوريا. وقد أوقع خير الدين هزيمة كبرى بالأسطول الصليبي عند بريفيزا القاعدة البحرية العثمانية الرئيسية في ألبانيا، ولكنه ثبت أن هذا النصر كان عديم الجدوى بدون التحالف مع فرنسا[1].

وفي عام (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) تم عقد الصلح مع جمهورية البندقية التي تخلت عن آخر أملاكها في شبه جزيرة المورة، واعترفت بكل فتوحات خير الدين في بحر إيجه ووافقت على دفع غرامة ضخمة مقابل اعتراف العثمانيين باستمرار حكمها في جزيرتي كريت وقبرص وعودة الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية. وهكذا انهارت السيادة البحرية التي تمتعت بها البندقية[2].

وفي عام (٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) طلب ملك فرنسا فرانسوا الأول من جديد مساعدة السلطان. وبعد أن أغار خير الدين على سواحل إيطاليا توجه إلى سواحل فرنسا الجنوبية حيث استقبل وبحارته استقبالاً حماسياً، إلا أن الضغوط الأوروبية على ملك فرنسا جعلته يتخلى عن وعوده السابقة بالتعاون مع السلطان ضد امبراطور النمسا (الهابسبورج) في إيطاليا، لهذا احتل خير الدين طولون ونيس وخرب سواحل إسبانيا وفرنسا وإيطاليا. وقد أدى موقف ملك فرنسا إلى أن يعقد السلطان سليمان هدنة مع امبراطور النمسا (الهابسبورج) في عام (٩٥٢هـ/١٥٤٥م) على أساس اعتراف الإمبراطور بالفتوح العثمانية الجديدة، ووعده بأن يدفع جزية عن مناطق شمالي وغربي المجر التي كانت لا تزال في

---

(١) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ١٠٢ ــ ١٠٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٦ ــ ٩٧ وانظر كذلك شارل ديل، البندقية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٤٤.

أيدي الهابسبورج. ولم تلبث الهدنة أن تحولت إلى صلح دائم عام (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) بعد وفاة فرانسوا الأول[١].

وهذا الموقف من دول أوروبا وخاصة فرنسا يثبت أن ملة الكفر واحدة، وأن فكرة محالفة العثمانيين لفرنسا كانت غير ذات قيمة، الأمر الذي أدى إلى فشل الامتيازات الأجنبية لأسباب دينية وسياسية واجتماعية وثقافية فأزمة الثقة قائمة بين الطرفين منذ الحروب الصليبية والتي انعكست في شتى المجالات.

السلطان سليمان القانوني والخطر البرتغالي:

أقام البرتغاليون قواعد لهم في الهند بعد نجاح الرحالة فاسكو دي جاما في رحلته التي وصل في نهايتها إلى الهند عام (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م). ومنذ ذلك الوقت وطد البرتغاليون أقدامهم في الشرق. وحرصوا على احتلال قواعد عند مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي ليسهل عليهم إغلاق المنافذ العربية الجنوبية لتجارة الشرق، فاستولت على جزيرة سوقطرة في خليج عدن ثم سيطروا على هرمز في مدخل الخليج. وشرعوا في مهاجمة السفن العربية في كل مكان وإغراقها أو إحراقها أو الاستيلاء عليها. ونجحوا في احتكار التجارة الشرقية، وقاموا بتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وفقد العرب مصدراً من مصادر رزقهم وأصاب الدولة المملوكية خسائر فادحة وكان عليها مواجهة الخطر البرتغالي إلا أنها كانت أضعف من مواجهة دولة البرتغال الناشئة ففشلت الدولة المملوكية في طردهم، وكان على الدولة العثمانية التي حلت محل الدولة المملوكية أن تقوم بهذا الدور[٢].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) د/بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي، الكويت ١٩٨٤، ص ١٥ ــ ٢٠.

أقام العثمانيون قاعدة بحرية في السويس للقيام بالعمليات العسكرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي لمحاربة البرتغاليين.

وفي الوقت نفسه، تطلع العثمانيون إلى قاعدة بحرية أمامية تمكنهم من مهاجمة البرتغاليين في المحيط الهندي، ومن السيطرة كذلك على البحر الأحمر وإغلاقه في وجه الدول الأوروبية فكانت هذه القاعدة الأمامية هي اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة[1].

وفي الوقت الذي أعد فيه العثمانيون الأسطول للاستيلاء على العراق والخليج، تلقى السلطان العثماني طلباً من حاكم كجرات المسلم ضد البرتغاليين والمغول، فتوجه الأسطول العثماني من السويس صوب الشرق (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) تحت قيادة سليمان باشا الخادم حاكم مصر. وخلال مروره بعدن واليمن استولى على المناطق الساحلية، وبذلك وفر للامبراطورية قواعد متقدمة للدفاع عن البحر الأحمر في وجه الهجمات الصليبية في المستقبل. وحين وصل سليمان الخادم إلى كجرات الإمارة المسلمة في الهند، رفض حاكمها نزول العثمانيين فعادوا إلى مصر. وتوالى استيلاء العثمانيين على مناطق اليمن الداخلية فاحتلوا صنعاء عام (٩٥٤هـ / ١٥٤٧م)[2].

ولم يتوقف الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين في مياه الخليج. ففي عام (٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) أبحر من السويس أسطول عثماني كبير بقيادة بيري ريس لاحتلال شرقي الجزيرة العربية وقطع خطوط الإمداد المحلي للبرتغاليين. واحتلت الحملة مسقط ثم أبحر إلى هرمز وحاصرها لمدة شهر، ثم انسحبوا بعد أن علموا بقدوم نجدة للبرتغاليين وأعدم بيري ريس نتيجة لتخاذله في الحرب. وكلف السلطان سليمان

(١) د/السيد رجب حراز، العالم العربي الحديث، ص ٢٣.

(٢) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ١٠٥.

قائداً بحرياً جديداً هو مراد بك فخاض معركة غير حاسمة مع البرتغاليين وعاد إلى البصرة. وأخيراً كلف السلطان سيدي علي ريس بالتوجه إلى البصرة لقيادة الأسطول العثماني وفشل الأسطول العثماني في القضاء على البرتغاليين في الخليج. وهكذا فشل العثمانيون في طرد البرتغاليين من الخليج العربي إلا أنهم منعوا انتشارهم وتوسعهم في الجزيرة العربية ومن الوصول إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة[١].

ورغم ذلك فإن سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر قد مكنت السلطان سليمان من استعادة قسط كبير من التجارة الدولية القديمة عبر مصر في الوقت الذي كانت تعوز فيه البرتغاليين القوة البحرية اللازمة لإحكام حصار الطرق القديمة[٢].

وقد أثر الوجود العثماني في المياه الشرقية في التطورات التي جرت في شرقي إفريقيا، فقد شجع على شن الهجوم على البرتغاليين الذين كانوا قد سيطروا على موانئ البحر الأحمر الإفريقية: سواكن وزيلع ومصوع، خاصة وأن البرتغاليين كانوا يسعون بتحالفهم مع الحبشة إلى تعزيز وجودهم العسكري والتجاري في البر الأحمر وضمان استمرار تجارة أوروبا مع الشرق عبر طريق رأس الرجاء الصالح. وفي عامي (٩٤٩ و ٩٥٠هـ / ١٥٤٢ و ١٥٤٣م) جرت محاولة لفتح الحبشة على أيدي أمراء ساحل شرقي إفريقيا المسلمين (دهلك ومصوع وزيلع وسواكن) الذين استعانوا بالعثمانيين لطرد البرتغاليين. وفي عام (٩٦٢هـ / ١٥٥٤م) نازل الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا البرتغاليين أمام شواطئ مصوع وأوقع بهم الهزيمة ثم صفى العثمانيون المواقع البرتغالية على طول امتداد شواطئ البحر الأحمر وبنوا بها القلاع. وفي عام (٩٦٥هـ / ١٥٥٧م)

---

(١) د/السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٩.

احتل العثمانيون ميناء مصوع. وتعاون أهل البلاد معهم ومع التجار المنافسين للبرتغاليين. وكانت النتيجة هي طرد البرتغاليين نهائياً من المنطقة واستقرار العثمانيين على طول شواطئ البحر الأحمر الإفريقية حيث جرى إنشاء ولاية الحبش وقاعدتها جدة[١]. واستطاع العثمانيون أن يعرقلوا حصار البرتغاليين للطرق القديمة ولم يحدث إلا منذ القرن السابع عشر حين حلت الأساطيل الانجليزية والهولندية القوية محل الأسطول البرتغالي، أن أغلقت الطرق القديمة نهائياً، بحيث واجه الشرق الأوسط أزمة اقتصادية حادة لم يفق منها إلا في العصور الحديثة[٢].

وفي عام (٩٧٣هـ / ١٥٦٥م) حاول السلطان سليمان الاستيلاء على مالطة، إلا أن استبسال فرسان القديس يوحنا في الدفاع عن الجزيرة كلف العثمانيين خسائر فادحة مما أرغمهم على فك الحصار. كما أرسل حملة إلى المجر التي قامت بثورة على العثمانيين بسبب مساعدة الأوروبيين لها، وسار إلى المجر وكان المرض قد ألم به فوصلها وحاصرها حتى اشتد عليه المرض، وقضى نحبه أثناء نجاح المهاجمين العثمانيين في القضاء على المقاومة المجرية والاستيلاء عليها عام (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)[٣].

وحين توفي سليمان عام (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) أثناء قيادته للحملة العثمانية على المجر، كان بإمكان العثمانيين أن يفخروا بالإنجازات التي حققوها خلال قرنين من الزمان. فلقد أضافوا العالم العربي إلى العالم اليوناني، وإن تكن قد اعترضتهم عقبتان احتلال فينا، وطرد البرتغاليين من المحيط الهندي. وأدى توسع الدولة العثمانية في قارات ثلاث إلى إيجاد مشكلات للدفاع الخارجي والتماسك الداخلي. هذا إلى أن الدولة

---

(١) عثمان صالح سبي، تاريخ أرتيريا، بيروت ١٩٧٤، ص ٦٤، ص ١٣٢ ــ ١٣٣.

(٢) عثمان صالح سبي، تاريخ أرتيريا ص ١٠٠.

(٣) قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢١٩.

كانت قد وصلت في عهد سليمان أقصى امتداد لها ثم وصلت إلى عوائق لم تستطع اجتيازها ففي الشرق لم تستطع القوات العثمانية أن تتقدم داخل فارس بسبب قوة الصفويين المركزية وبسبب الهضبة الإيرانية وصعوبة توجيه الجيوش العثمانية ضد دولة إسلامية ولهذا توقفت الجيوش العثمانية في الشرق ولم يمكنها التوسع في أواسط آسيا أو الهند وفي المياه الشرقية واجه العثمانيون السفن البرتغالية المتفوقة، أما في القرم فقد واجهوا قوة روسيا الناشئة والتي أخذت في التوسع شرقاً وجنوباً على حساب المسلمين. وفي إفريقيا اعترضت العثمانيين الصحراء الكبرى والجبال وقسوة المناخ، وبخاصة في الوقت الذي تضعضع فيه تفوقهم البحري في البحر المتوسط. وفي البلقان اعترضهم ازدياد قوة النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، فتراجعوا عن فينا ثم ما لبثوا أن فقدوا المجر[1].

وقد وصف المؤرخون الغربيون على السلطان سليمان لقب العظيم تشريفاً له وتعظيماً، في حين شرفه العثمانيون بلقب القانوني (أي واضع القوانين) مجموعة قانوننامة ويمكن اعتباره أعظم شخصية في التاريخ العثماني. فقد وصلت الدولة العثمانية في عهده أوج اتساعها وقوتها براً وبحراً، في الوقت الذي اتصف فيه عاهلها بالتعقل والعدل والكرم والذكاء وأجرى كثيراً من الإصلاحات الهامة، كتنظيم الإقطاعات العثمانية، والقوانين والإصلاحات وتنظيم البوليس وإنشاء المدارس والكليات والجوامع والآثار العمرانية التي تفوق كل وصف وكان أهمها جامع السليمانية. وقد أشرف المهندس المعماري سنان باشا على كل

(١) قطب الدين النهروالي، المرجع السابق، ص ٢١٩.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٥٦.

الآثار العمرانية، فقد أنشأ سنان باشا في عهد سليمان ٨١ جامعاً كبيراً، ٥٢ مسجداً صغيراً، ٥٥ مدرسة، ٧ معاهد لدراسة القرآن الكريم، ١٧ مطعماً عمومياً، ٣ مستشفيات، ٧ كتاتيب لحفظ القرآن الكريم، ٧ جسور، ٣٣ قصراً، ١٨ خاناً، ٥ متاحف، ٣٣ حماماً، ١٩ ضريحاً[٢].

وقد كثرت إحساناته على أهل الحرمين الشريفين، فأجرى العيون، وحفر الآبار، وأقام الأبنية للفقراء، والدور والمستشفيات، وضاعف الصدقات لهم[١].

(١) كارل برو كلمان، المرجع السابق، ص ٤٥٦.

obeikandl.com